المملكة المغربية
الرابطة المحمدية للعلماء

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

(133)

نقد قيم ما بعد الحداثة
نحو ترميم الذات الإنسانية

د. خالد ميار الإدريسي

www.arrabita.ma

نقد قيم ما بعد الحداثة:
نحو ترميم الذات الإنسانية

د. خالد ميار الإدريسي

باحث في العلاقات الدولية ورئيس المركز المغربي للدراسات الدولية والمستقبلية

إن مطارحة نقدية لقيم ما بعد الحداثة، ليست ترفا فكريا، وإنما هي محاولة نابعة من استشعار خطر داهم، يهدد المنظومة القيمية المتعارف عليها. فهناك تأثير كبير للفكر ما بعد الحداثوي في الأروقة العالمية وتوجيه للنقاش الأخلاقي، نحو الاعتراف بالإنسان الهجين المفصول عن قيم متعالية مستمدة من الدين أو الحس العم. وبالتالي الإقرار والاحتفاء بالنسيانية الأخلاقية التي تبيح كل شيء بدعوى حرية الاختيار والفعل.

فما بعد الحداثة هي الإجهاز الكامل على القيم المتسامية والتحضير لقدوم ما بعد الإنسان. ولذا فالعالم الإسلامي يواجه تيارا فكريا ومعرفيا، متغلغلا في المنظومة الحقوقية والأخلاقية. فالفكر الإسلامي مطالب بمناظرة وتفنيد عبثية ما بعد الحداثة. في هاته الورقة لا نروم إلى بيان شروط تحقيق هاته المواجهة الفكرية، وإنما نتوخى فقط النظر في طبيعة قيم ما بعد الحداثة والإشارة إلى مفارقتها لأصول الفعل الأخلاقي المتسامي، ومدى حجم تداعيات ذلك على مصير الإنسانية. لذا سنعمد إلى تبني مقاربات متعددة، مقاربة مفهومية وسوسيوسياسية وفلسفية واستشرافية.

وهكذا سنقوم بالإطلاع أولا على الوضع ما بعد الحداثي باعتباره وعاءً لتشكل هاته القيم، ثم آفات الانزلاق القيمي لما بعد الحداثة وننهي ذلك بمحاولة استشراف المآلات الإنسانية.

أولا: الوضع ما بعد الحداثي

إن فهم وإدراك طبيعة القيم ما بعد الحداثية، يقتضي تتبع تشكل مفهوم "ما بعد الحداثة" وما يجاورها من مفاهيم لصيقة، ثم بسط مبادئ ومظاهر انزعاج الفكر ما بعد الحداثوي، وبيان

محددات وخصائص ما يسمى "المجتمع ما بعد الحداثي". فقيم ما بعد الحداثة أو أخلاق ما بعد الحداثة، مرتبطة بتحولات عارمة يشهدها المجتمع الحداثي النافر من المجتمع التقليدي.

1. مفهوم ما بعد الحداثة: التشكل والدلالات

عندما نسعى إلى تحديد تعريف لما بعد الحداثة، نواجه بكم هائل من التعاريف تختلف عن بعضها البعض إلى حد التضارب، غير أن الباحثين الدين حاولوا تقديم تعريف لها إما أنهم اعتبروها مرحلة تاريخية أو ثقافة جديدة.

أ. ما بعد الحداثة/مرحلة تاريخية معاصرة

هناك مجموعة من الباحثين الذين دافعوا عن هذه الأطروحة، كإيهاب حسن وسورمان وتورومونتير ووايلد وبودريار ودوزان وهوك ونيومان وغيرهم[1]..

يرى الباحث فيدرستون[2] أن ما بعد الحداثة مرحلة تاريخية تشكل قطيعة مع الحداثة، حيث تظهر وضعية اجتماعية جديدة تتميز بمبادئ تنظيمية خاصة بها.

أما جيدنز Giddens[3] فيقول بأنه، إذا كنا في عهد ما بعد الحداثة فإن ذلك يعني أننا نتجه إلى نظام يبتعد عن مؤسسات الحداثة. ويبدو لليوتار بأن ما بعد الحداثة ليست بالوعظ ولا بالأسى، بل هي حالة حقيقة؛ أي أنها معاصرة[4] كما أن Guyscarpetta[5] يعتبرها من أعراض نهاية مرحلة.

ومن الباحثين من حاول التأريخ[6] لبداية العصر ما بعد الحداثي، كدريدا وبومان Bauman

1. Ruby. Christian: le champ de bataille postmoderne. néo-moderne. Paris. L'harmattan. 1990. - Larochelle Gilber: «Postmodernité théorie et rhétorique dans les sciences sociales humaines». Cahiers de recherche. groupe d'étude. Interuniversitaire sur la postmodernité. N°2. 1991. p42.

2. Featherstone Mike: «Consumer culture and postmodernism».Sage publication. London. 1993. p. 3.

3. Giddens: conséquences de la modérnité. tr. par Oliver Meyer. Harmattan. 1994. p 196.

4. غصوب مي، ما بعد الحداثة. العرب في لقطة فيديو، دار الساقي 1992، ص10.

5. Ventier Marie: «Les méta-récits. le postmodernisme et le mythe post colonial au Québec». Etude littéraire. V 27. N°1. Eté 1994. p 1-6.

6. Bayard Caroline: «postmodernité Européens Ethos et fin de siècle». Etude littéraire.V 27. N°1. Eté 1994. p. 94.

وهيلر Heller حيث صرحوا بأن سقوط جدار برلين هو الإعلان الرسمي لنهاية الحداثة، فكانت رؤيتهم عبارة عن مقاربة فلسفية وسياسية بخلاف المقاربة الجمالية التي تبناها دافيد هاربي[1] والناقد المعماري شارل جكنس حيث اعتبرا تدمير بناية Pruitt-Igoe في 15 يوليوز 1972 هي نهاية صرح الحداثة.

ويعد بودريار من أهم الذين اعتبروا ما بعد الحداثة مرحلة تاريخية حيث قسم "التاريخ من عصر النهضة إلى ثلاثة مستويات مظهرية أساسية، فمن عصر النهضة وحتى الثورة الصناعية تلك فترة الزائف أو المصطنع أما الحقبة الصناعية فهي حقبة الإنتاج والحقبة الحالية هي حقبة المحاكاة حيث يغلب على الواقع صور ذلك الواقع باستمرار لا حقيقته ويسوده استحالة التجديد[2]" وهذه الفترة هي ما بعد الحداثة.

والقول بأن ما بعد الحداثة لحظة معاصرة أو وضع آني مثار خلاف كبير؛ فإن كان هناك إجماع على كون العالم بصفة عامة يعرف تحولات هائلة، والمجتمعات الغربية خاصة تهيج بالتغيرات الجارفة، فإن الباحثين لا يتفقون مع ما بعد الحداثويين على اعتبار هذا التحول الشامل هو العصر ما بعد الحديث.

فالباحث Freitag [3] لا يعتبر ما بعد الحداثة مرحلة تاريخية أو بوابة عصر جديد، وإنما هي مجرد مفهوم نقدي، أما التحولات العامة التي يشهدها المجتمع البشري فلا زالت موضع إشكال وستبقى مفتوحة أمام كل التأويلات.

ب. ما بعد الحداثة/حالة ثقافية

ينظر الماركسيون الجدد إلى ما بعد الحداثة كوجه ثقافي للزمن الرأسمالي المتأخر، كالباحث جيمسون[4] وزوكان وإيجلتون وكوك. يذهب جيمسون إلى اعتبار ثقافة ما بعد الحداثة "كتعبير بنيوي

1. Harvey David: the condition of post modernity. Blackwell. 1992.

2. روز مارغريت، ما بعد الحداثة، ترجمة أحمد الشامي الهيئة المصرية للكتاب 1994 ص141.

3. Freitag Michel: «postmodernité compréhension normativité». Cahiers de recherche. N°1. Séminaire de 25 janvier 1991. p. 3.

4. Jameson. Frederic: «postmodernism or the cultural logic of late capitalism». New left Review. N°146. 1984. p87.
- Zukin. Sharon: «The postmodern Debate over the urban Form». Theory. culture and Society. V 5. N° 2-3.1983. p. 431-416.

وداخلي عن موجة كلية جديدة من الهيمنة الأمريكية على العالم عسكريا واقتصاديا: هذا، وكما هي الحال على مر تاريخ الطبقات، تمثل الثقافة الوجه الآخر للدمار والتعذيب والموت والأهوال". هذه النظرة لا تخلو من تحامل إيديولوجي كما لاحظ ذلك إيهاب حسن[1].

فلا يمكن في نظرنا القول بأن ما بعد الحداثة هي ثقافة أمريكا بالأساس وإنما هي التداعي المتوالي لانهيار حدود الزمان والمكان مع ثورة الاتصالات، إنها ثقافة "القرية العالمية" حيث يتلاقى المحلي والعالمي تلاقي لا يخلو بالطبع من خضات عنيفة ولكن رغم ذلك تولد عنه في المجتمعات الغربية الاعتراف والإقرار بخصوصيات الثقافات المهمشة وبالأذواق المتباينة[2].

ومن خلال مقاربة[3] نفسية يبدو لكل من دولوز وغتاري وكوك أن ما بعد الحداثة هي حالة من الفزع الجماعي الناجم عن فقدان المحددات الاجتماعية وشيوع أحاسيس اليأس والضياع... إنها ثقافة المجون والغربة وتدمير القيم، الشيء الذي يفضي حسب "دانييل بل" إلى العدمية والعبث... إنها ثقافة الأزمة.

وبينما يعتبر كالينكوس "خطاب ما بعد الحداثة كنتاج انتجلسيا متحركة اجتماعيا في وقت يسيطر فيه انهيار الحركة العمالية وتسيطر فيه أيضا ديناميكية الاستهلاك المتعاظم جدا في رأسمالية العصر الريغني - التاتشري[4]"؛ فإن البعض يعتبر ظاهرة ما بعد الحداثة حركة للنخبة المثقفة التي تميل إلى الانسحاب من دورها الاجتماعي. ويمكن القول مع أندرياس هولسين وكلاوس شربيه أن ما بعد الحداثة هي فعلا علامة تحول ثقافي[5].

إلا أن البعض كالباحث Renier[6] يرفض اعتبار ما بعد الحداثة كثقافة فهي في نظره مجموعة من الحساسيات المبعثرة التي لا يمكن أن يضمها مفهوم واحد ولا ثقافة واحدة. ويمكن القول أن ما

- Eagleton. Terey: Against the Grain. London Verso 1986.

1. روز مارجريت، ما بعد الحداثة، ص79.

2. يفصل الباحث فوستر هذه القضية بامتياز.

3. Foster. Hal: The anti-aesthetic: Essays on postmodern culture. Bay Press. 1983.

4. الديراني سليمان، ما بعد الحداثة مجتمع جديد أم خطاب مستجد؟ مجلة الفكر العربي، عدد 83، 1996، ص11.

5. تورين آلان، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة 1997، ص253.

6. Larochelle Gilbert. op cit. p. 39.

بعد الحداثة هي دورة فكرية عنيفة تشكل انزعاجا من مشروع الحداثة.

2. الانزعاج ما بعد الحداثوي

يمكن تحديد عملية النظر في الإرث الغربي التي شرع فيها الاتجاه ما بعد الحداثوي من خلال الضوابط التالية: التشكيك والرفض والاعتراف.

أ. التشكيك

تعد ما بعد الحداثوية بمثابة تيار جارف في الفكر الغربي يستهدف إعادة النظر في الحداثة بصفة شاملة وجذرية وعنيفة من خلال التشكيك في أسسها ونقد مقولاتها.

فهذه النزعة تنتقد كل المقولات التي استند عليها الفكر الغربي في بناء مشروع الحداثة، كمفهوم التقدم والتنوير والعقلانية والليبرالية والنزعة الإنسانية[1] فالمفكر غيهلن يرى بأن مسلمات عصر الأنوار قد ماتت..[2].

وليوتار في كتابه "الوضع ما بعد الحداثي" يضع الأنساق الفكرية المغلقة (méta-narrative) تساؤل وشك؛ لأن المعرفة التي ينتجها الأقوياء ليست سوى جزء من الهيمنة[3]، فهو يعرف ما بعد الحداثي بأنه التشكك إزاء الميتا-حكايات. ويرى بأن "أفول الحكاية هو من آثار الازدهار التقني الذي حول الاهتمام من غايات الفعل إلى وسائله[4]."

عموما فإن فلاسفة الاختلاف من فوكو ودريدا، وليوتار... ساهموا في زعزعة مقولات الفكر الغربي؛ لأنها أصبحت ستارا للفكر "الرجعي". وعملية التشكيك هاته أفرزت إدانة شاملة لكل أشكال الهيمنة.

ب. الرفض

يناهض تيار ما بعد الحداثوية أسس الفلسفة الوضعية، فيرفضون قانون المراحل الثلاث،

---

1. علي حرب، من العقلانية إلى نقد العقلانية، دراسات عربية عدد 7-8/31 ماي-يونيو 1995 ص20-21.

2. Habermas: le discours philosophique de la modernité; tr par chrétian B.et R. Rochlitz. Gallimard. 1988. P. 3-4.

3. جولان خلدون، الإسلامية وما بعد الحداثة، مجلة أبعاد، العدد الرابع دجنبر 1995، ص272.

4. ليوتار، الوضع ما بعد الحداثي، ترجمة أحمد حسان، دار الشرقيات 1994، ص56.

وأحكام القيمة ومفهوم الموضوعية ويرى دومان Deman[1] أن جوهر ما بعد الحداثوية يكمن في مقاومة النظرية. كما أن René Thom[2] بدوره لا يقر بصلاحية مقولة النسق المستقر، كما يرفضون فلسفة الذات[3]. وحسب إهاب حسن فالفكر ما بعد الحداثوي يدعو إلى إسقاط نظام السلطة الفكرية في كافة المجالات.

كما يرفضون مبدأ الطليعة والنخبوية، فالمفكر الفرنسي برنار هنري ليفي، أبدى تقززه من هذا المفهوم الذي لم يعد محتملا حيث يقول "الطليعة يا لهذه الكلمة. هنا أيضا يوجد التباس كبير، كما لوكانت الفكرة حربا، كما لو كان الكتاب مقاتلين كما لو أن من تبقى منهم يقبع في مقدمة حملة عسكرية ما. لا يمكنني تصديق أننا أخذنا بهذا كله[4]" هذا الرفض الشامل أفضى بهم إلى المطالبة بضرورة الاعتراف بمبدأ الاختلاف.

ج. الاعتراف

يدعو الاتجاه ما بعد الحداثوي إلى الحرية والتعددية الغير المتناهية، لذلك يهتم إلى حد الشغف بتباين الأذواق مقابل نخبوية الذوق، فلا يفرق بين الفن الوضيع والرفيع والسطحي والعميق؛ لأنها مقولات حداثية. ويهتم بالجزئي والمتشظي والمحلي والخطاب الهامشي ويشجع الثقافات الشعبية والمقصية والمحظورة بدعوى التنوع والحرية. كل هذا المجهود ينصب أساسا نحو تكسير الاحتكار المعرفي.

لاشك أن هذا "الانزعاج" ما بعد الحداثوي يشكل رجة عنيفة لم يشهد لها الفكر الغربي مثيلا، نزعة تشكيكية في غاية الخطورة، ورغم ذلك، فلا يمكن، في نظرنا، القول بأن هذا الجهد يمثل "مشروع التجاوز" لأزمة الفكر الغربي.

إن هذه الحركة الصاخبة لا تدعي ذلك، بل هي نفسها تصرح بأنه لا أحد يمتلك صلاحية التلويح بامتلاك الحقيقة وقدرة التوجيه، فهي تنزعج من المنغلق وتنفر من بناء النظريات

1. Murphy J: «Incidence du post modernisme sur l'avenir des sciences sociales». Diogène. N° 143. 1988.

2. ليوتار، الوضع ما بعد الحداثي، م، س، ص73.

3. السيد سين، الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، الجزء الأول، نقد العقل التقليدي، المكتبة الأكاديمية، 1996 ص70.

4. انظر: شرابي هشام، معنى الحداثة في ندوة "الإسلام والحداثة"، دار الساقي، 1991 ص278-279.

والأنساق وتدعو إلى التداعي والانفلات... وبالتالي الانسياب في عالم المفتوح واللامتناهي والإقرار بالنسبية. إنها منصرفة إلى التهكم والسخرية من كل شيء ولا تنوي تشكيل مشروع وإنما تنعي انهيار وموت الحضارة الغربية.

فحتى وظيفة النظر الفلسفي في نظرهم يجب أن لا تتجاوز التأمل النقدي دون الطموح نحو تشكيل أنساق فلسفية كلية لا تلبث أن تزول بزوال السياق الزمني، وهذا ما يشكل إقصاءً لليقين وبالتالي الولوج إلى عالم ما بعد الفلسفة.

هاته الثورة الفكرية لا تنفصل عن طبيعة المجتمع ما بعد الحداثي الذي يعج بالتناقضات والمفارقات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.

3. المجتمع ما بعد الحداثي/المحددات والخصائص

إن الحديث عن مجتمع ما بعد الحداثة ينطلق من كون ما بعد الحداثة بمثابة التجلي الثقافي للمرحلة ما بعد الصناعية. ولا يمكن ملامسة طبيعة هذا التمظهر أو الترابط بين ثقافة ما بعد الحداثة وتحولات مجتمع ما بعد الصناعة[1]، إلا من خلال النظر في التشكلات المتلصقة بهذا الانتقال والتي غيرت الكثير من أنماط السلوك الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وهذا ما يستدعي الإشارة إلى خصائص مجتمع ما بعد الصناعي وما بعد الحداثي باعتبارهما وجهين لعملة واحدة. ولكن قبل تحديد هاته الخصائص، ينبغي ذكر النزعات الثلاث التي تشكل في نظرنا محددات المجتمع ما بعد الحداثي.

أ. محددات المجتمع ما بعد الحداثي

هناك ثلاث نزعات ساهمت ولازالت تساهم في بلورة المجتمع الما بعد الحداثي وتحديد مساراته وهي: النزعة الاستهلاكية والنزعة الفردانية ونزعة العدمية.

.النزعة الاستهلاكية

إن دلالة هاته النزعة لا تتجاوز مجرد السلوك الاستهلاكي اليومي العادي والمعقول، بحيث يراد

1. للوقوف بتفصيل على تاريخ وخصائص المجتمع ما بعد الصناعي، انظر:
- Krishankuman: From postindustrial to postmodern society. Blackwell. 1995.
- Belle. D: vers la société postindustrielle. PUF. 1976.
- Allen. Y.: «Postindustrial and post-fordism». in Stuart Hall: Modernity and its futures. Polity Press. 1992. p 174.

بها ذلك المحفز الواعي وغير الواعي، الذي يحمل الإنسان إلى تحديد هويته في كونه مستهلكا، "فأنا أستهلك إذا فأنا موجود"، فكينونة الإنسان المعاصر مرتبطة بمدى وطبيعة استهلاكه[1]، فالاستهلاك هو الغاية للتحقق بالوجود. وقد أفاض لبيوفتسكي[2] في بيان ذلك، كما تحدث دافيد هاري[3] عن التحول إلى الراهنية الاستهلاكية "كان التأثر الأساسي هو تعميم قيم الراهنية ومزاياها (الطعام والوجبات الآنية والسريعة...) لقد غدا مجتمع "رمى كل شيء" كما سماه الفين توفلر، حقيقة واقع منذ الستينيات، كان ذلك يعني أكبر من مجرد رمي سلع مستهلكة، بل هي أيضا القدرة على رمي القيم وأنماط العيش والعلاقات المستقرة بعيدا..."، فهذا النزوع الاستهلاكي المفرط أدى إلى التخلي عن بناء مجتمع أكبر لصالح "تجربة الفرد اليومية العادية" كما يقول هاري[4].

. الفردانية[5]

إن النهم الاستهلاكي هو الباني لقيم الفردانية[6]؛ فكلما تعزز الشعور لدى الفرد بالحاجة إلى المزيد من الاستهلاك، كان تقوقعه على ذاته أقوى وأكثر ولذلك فعصر الفردانية هو مزيد من الانهمام بالذات وتقويض لروح التضحية من أجل الجماعة (الأسرة، العشيرة، الدولة...)، فالمشهد الاقتصادي هو التعبير المكتمل للنزعة الفردانية "كما يقول دومون[7]" وبالفعل فالعصر ما بعد الحداثي هو تحرير متواصل للفعل الاقتصادي وترسيخ قيم الاغتناء والربحية وفي نفس الوقت توليد لقيم الاستهلاكية والتلذذ. ولذا فتضافر الاستهلاكية والفردانية يزجان الإنسان ما بعد الحداثوي في صلب العدمية التي تتخذ أشكالا متعددة وأبعادا متباينة.

---

1. G.Lipovetsky: le bonheur paradoxal: Essai sur la société d'hyperconsommation. Folio. 2009.

2. Ibid.

- بودريار جان، المجتمع الاستهلاكي-دراسة أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه، ترجمة خليل أحمد، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995

3. هاري، حالة ما بعد الحداثة.ترجمة محمد بشير، المنظمة العربية للترجمة، 2005، ص333.

4. المرجع نفسه.

5. للتوسع: حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، 2004.

6. Lipovetsky: l'ère du vide. Paris. Gallimard. 1983. P. 118.

7. لويس دمون، مقالات في الفر دانية، ترجمة بدر الدين عرودكي، المنظمة العربية للترجمة، 2006، ص27.

.العدمية

يرى فاتيمو بأن العدمية في دلالتها الفلسفية تتخذ المعنى "الذي أعطاه نيتشه لها في الملاحظة الافتتاحية للطبعة القديمة لمؤلفه (إرادة القوة): الوضع حيث يتدحرج الإنسان خارج المركز نحو المجهول...[1]."

إن هذا التدحرج أو التيه هو سقوط للقيم العليا بالنسبة لهايدجر[2]. وهو بالنسبة للإنسان ما بعد الحداثي عدم الاعتقاد في شيء سوى قيمة اللحظة الراهنة، وعدم وجود غائية في الحركية الزمنية. وهذا يؤدي إلى رواج سلوك الانتحار المادي (قتل الذات) والاستغراق في المخدرات والبحث عن أنماط من الرياضات الخطرة.. الوصول إلى اليأس وعدم الثقة في أي شيء[3]، بل الاحتفاء بالموت وسيادة قيم اليأس والنهاية وعدم وجود حقيقة.

ب. خصائص المجتمع ما بعد الحداثي

إن مجيء المجتمع ما بعد الصناعي ينعكس في ظهور أنماط جديدة من السلوك اليومي التي يطبعها نهم الاستهلاك وطلب التلذذ والترفيه والانجذاب نحو الفرجة (أفلام- مباراة رياضية... رحلات سياحية) كل ما من شأنه أن يبعث روح المرح ويساهم في نسيان ضنك العيش اليومي. وبالتالي الانفتاح نحو التعدد من أنماط العيش الوافدة والثقافات المتنوعة والألوان اللامتناهية من أساليب الحياة إنه الانفجار الثقافي الذي يتم على يد الثورة الإعلامية والرقمية[4]، الشيء الذي يسفر عن مزيد من الضياع الروحي وانحدار القيم والعزوف عن المتعالي والسامي والبحث عن أشكال دينية في نهاية اللاعقلانية.

وفي الأخير، فقدان الثقة في عالم السياسة وتدني مستويات التأييد السياسي ذلك أن مواطن مجتمع ما بعد الحداثة منصرف إلى الانشغال بذاته طلبا للتسلية والفرجة بعيدا عن دنس السياسة. هذه هي سمات المجتمع ما بعد الحداثي التي سنحاول بسطها في السطور التالية.

1. جياني قايتمو، نهاية الحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1997 ص24.
2. المرجع نفسه، ص25.

3. G.Lipovetsky: le crépuscule du devoir. Gallimard.2000.

4. هناك بحث متواصل على مدى تأثير الصورة وهيمنتها في الحياة اليومية وتوجيه السلوك البشري، انظر:
- G. Lipovetsky, J.Servy: l'ecran global. Points 2011.

. مجتمع الفرجة والتلذذ

يقول بودريار: "لقد وصلنا إلى النقطة التي يحيط فيها الاستهلاك بكل شيء، بكل الحياة حيث تتسلسل كل النشاطات طبقا لنمط تركيبي واحد، وحيث ترسم مسبقا لوحة الإشباعات ساعة، فساعة..."[1]؛ هذا التوجه الشامل للسلوك اليومي نحو الاستهلاك والاقتناء والاستمتاع، ما كان ليكون لولا قوة الصورة الإشهارية التي تستعرض "الحياة السعيدة".

فالاستعراض حسب جي ديبور[2] هو في نفس الوقت نتيجة ومشروع نمط الإنتاج الراهن، ويحتل الجزء الأكبر من الوقت المعاش خارج الإنتاج الحديث، بل هو في حد ذاته إنتاج ومحور جاذبيته. فمجتمع الاستعراض يزج بالفرد في دوامة استلاب كلي حيث تمحقه رغبة محاكاة نماذج السعادة. وفي مجتمع الفرجة يصل الزائف ذروته كما يبلغ ضياع الفرد منتهاه حيث يتحول إلى سلة تملأ بالسلع والماركات.

فالاستهلاك هو طقس[3] مجتمعات ما بعد الصناعة فاستهلاك رموز التميز، هي التي تجعل إنسان المجتمع ما بعد الحداثي يعيش اللهاث المضاعف والمكثف، لهاث وراء المال، ولهات خلف البحث عن الطريف والجديد والصارخ والمتفرد...فينغمس في العوالم الافتراضية الوهمية بحثا عن التسلية الواهية فيحصل التبدد تم الضياع...

. مجتمع الانغماس في العوالم الافتراضية

لقد تطور منطق اللعب في المجتمع ما بعد الحداثي إلى مستوى الانغماس المرضى في عوالم افتراضية تفصل الشخص عن الواقع اليومي وتزج به في عوالم يساهم في بنائها وتصورها وتأثيثها حسب كفاءاته التخيلية. وهي عوالم لا تخلو من مخاطر نفسية ومادية وأخلاقية؛ (إباحية، سرقات، ضياع وقت، أمراض عضوية لعدم ممارسة المشي، تغير في نمط الأكل...). وتعتبر لعبة "الحياة الثانية-Seconde life" حالة تطبيقية[4]، حيث قام مجموعة من الباحثين بدراسة

1. المجتمع الاستهلاكي-دراسة أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه، م، س، ص14.

2. ديبور جي، مجتمع الفرجة، الإنسان المعاصر في مجتمع الاستعراض. ترجمة أحمد حسان. دار الشرقيات. 1994 ص10-11.

3. المرجع نفسه.

4. موسى فيربي، الأخلاقيات والعوالم الافتراضية الحياة الثانية- دراسة تطبيقية، ملخص تحليلي لمؤسسة طابة، رقم 9. يونيو 2009.

العواقب القانونية والنفسية والأخلاقية المرتبطة بممارسة هاته اللعبة الافتراضية. "وتركز معظم المناقشات حول أخلاق العوالم الافتراضية على قضايا تتعلق بما إذا كانت الأفعال داخل العوالم الافتراضية ذات مغزى أو دلالة، وطبيعة الخطأ ووضع الأفعال الضارة داخل العالم الافتراضي والعقاب. لا تقتصر هذه المناقشات على العالم الافتراضي أو الأكوان الماورائية فحسب، وإنما تشمل أيضا ألعاب الفيديو والألعاب من خلال الشبكة[1]."

. مجتمع التفكك الاجتماعي وانحدار القيم والاغتراب الروحي

جل الدوائر الأكاديمية المهتمة برصد تحول السلوك الاجتماعي والديني تؤكد حقيقة انحدار القيم وتدهور الاعتقاد الديني[2]، واستفحال التسيب الأخلاقي.

فلم تعد الكنيسة تؤثر في الحياة الاجتماعية للمواطن الغربي[3] وهذا ما يؤكده جل القساوسة المحللين لظاهرة العزوف عن الديانة المسيحية. ولذلك يشير لويك هولمان[4] إلى كون مجتمعات التحديث وما بعد التحديث لم تعد تستمد توجهاتها القيمة من الدين ومؤسساته، وإنما من الاستقلالية الفردية فكل فرد أصبح هو المرشد الأخلاقي لنفسه. وبذلك تراجع التوجيه الأخلاقي الجماعي لصالح الاستقلال الفردي الذي أخذ يملي على الأفراد اختياراتهم الخاصة وأساليب حياتهم.

ويبدو لهولمان[5] أن التركيز على الفرد ينتج عنه تفشي الاستهلاكية والحرمات الذاتية والعدمية والنرجسية ومذهب السعادة الحسية وكل ذلك يؤدي إلى تقويض الإحساس بالمواطنة وبالتالي

---

1. تعتبر دراسة Brey من أهم المحاولات التي رامت البحث عن التمثلات الأخلاقية في ممارسة المستخدمين للواقع الافتراضي وخصوصا "الحياة الثانية". انظر:
- Brey.P: «The Ethics of representation and action in virtual reality» Ethics and information. Technoligy1. N° 1. 1999:5-14.

2. الأخلاقيات والعوالم الافتراضية الحياة الثانية- دراسة تطبيقية، م، س، ص19-20.

3. دوجان ماتي، تدهور الاعتقادات الدينية في أوروبا الغربية-المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، عدد 145 سبتمبر ص45-62.

4. Poulat Emile: l'ère post chrétienne. Flammarion. 1994.

5. هولمان لويك، هل تتعرض الأخلاق للانحدار، بحث في الأخلاق بين الدول في المجتمع المعاصر، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، عدد 145 سبتمبر 1995، ص64.

رفض الفرد لأي توجيه لسلوكه الشخصي.

ولذا ترتفع أصوات التحذير، فالانخراط في الميولات الفردية سيتولد عنه التملص من الالتزام الاجتماعي. ولذلك دعا أصحاب نظرية الجماعية Communatarian إلى إعادة بناء نظام أخلاقي متماسك[1] بهدف صياغة إجماع على الأخلاقيات الأصيلة التي أخذت في الاندثار. ويبلغ تناقض المجتمع ما بعد الحداثي ذروته حينما نلاحظ في نفس الوقت الذي يتم فيه فقدان الثقة في نماذج الاعتقاد الرسمية وشخوص الديانة المسيحية، يتم التوجه نحو تبني معتقدات متباينة الجذور[2].

فقد انتشرت في الديار الغربية اللهفة نحو الانضمام إلى الخلايا الدينية[3]. ويبدو البعد ما بعد الحداثي في هذا التوجه الديني، في النزوع نحو الاغتراف من تعددية دينية وافدة، مختلفة الأسس العقائدية (وثنية وسماوية).

فهناك انبعاث جديد لديانات قديمة من مصر واليونان والهند وإفريقيا السوداء، كعبادة الشمس والقمر والأوثان وحتى الشيطان. وهنا تبدو الطرافة حيث يتم الانتقال والمزج بين خليط متنافر من الاعتقادات[4]. فأصبح الدين بدوره يخضع لمنطق الاستهلاك، استهلاك تعددية الألوان الدينية المتاحة في السوق العالمية. وهذا ما يؤكد ضياع وحيرة وتيه إنسان المجتمع ما بعد الحداثي في زمن تفتت نظام القيم[5] والانحدار السريع نحو التفكك الاجتماعي والاغتراب الروحي وهيمنة منطق المنفعة كما أشار إلى ذلك المفكر جالتنبج[6]. وإضافة إلى هذا الاغتراب الروحي هناك

1. المرجع نفسه، ص67-68.

2. المرجع نفسه، ص68.

3. Zylberberg. J: «Restructuration religieuse et restructurations sociales(les entreprises de croire dans la post-modernité) ». in Daniel Mercure (dir): la culture en mouvement Presse de l'université Laval. 1992 p 20-21.
- Christien Laline d'Epinay: «la religion profane de la société post-industrielle». in Daniel Mercure. op. p 77-90.

4. Holizer. Hans: les nouvelles sectes païennes.Marabout. 1974 p 101-154.

5. Lipovertsky: l'ère du vide. Op. cit. p 133.
- Belle. D: «Modernism. post-modernism and the decline of moral order». in Jeffory. C. Alexandre.:culture and society contemporary debates. Cambridge universitiy. Press 1999 p 319.

6. عايش حسن، الحداثة وما بعد الحداثة وانعكاسات كل منهما على المجتمع والأسرة والمدرسة، دراسات عربية، العدد

اغتراب سياسي.

. مجتمع ما بعد السياسة

يعتبر الانصراف عن أمور السياسة[1] واللامبالاة بقضاياها الكبرى التي كانت تلهب الحماس هو السمة الأكثر تمييزا للمجتمع ما بعد الحداثي.

فكما لاحظ إنجلهارات فإن قاعدة التأييد السياسي في المجتمع ما بعد التحديث في تدني متواصل[2]. فالساحة السياسية تعرف انسحاب الناخب العام، وأصبحت حكرا على المحترفين، ولا يلتقي المواطن بالقضايا السياسية إلا في زمن الانتخابات التي بدورها لم تحرك الجماهير الآخذة في التفتت. وعموما يمكن إرجاع انخفاض وتدهور الاهتمام بالسياسة في نظرنا إلى عاملين هما فقدان الثقة في الرجل السياسي وسحر مجتمع الاستعراض والتسلية.

فالمجتمعات الغربية، (بل كل المجتمعات) تعج بالفضائح السياسة والأخلاقية (رشوة[3] فساد، تحالف مع المافيا، الاشتراك في ترويج المخدرات، واستعمال أرباحها في تمويل الحملات الانتخابية، والسطو على المال العام... تزييف الحقائق). كل هذا جعل صورة الرجل السياسي تهتز. "فالرجل السياسي الذي حلم به فلاسفة التنوير كان من المفترض أن يكون ولادا لحقيقة المجتمع... ولا يوجد اليوم أغرب من فكرة هذا الشخص، الذات، الموجود من تلقاء نفسه، خارج الشبكات العلائقية التي يندرج فيها والكفيلة وحدها بتحديده[4]."

فالرجل السياسي، اليوم، هو التعبير المكثف عن المجابهة بين المصالح، وعزوف المواطنين وتضاؤل نسبة المشاركة السياسية؛ هو شعور بأن الصالح العام انمحي من جدول أعمال الرجل السياسي

3-4 السنة 33، 1997 ص80.

1. Howard. Dich: «une critique républicaine de la politique contemporaine ou de la tentation antipolitique». société N° 14. hiver 1995. p. 93.
- Clespy: la société de la confusion. PUF 1990. p. 13.S
- Brinbaum: la fin du politique-Seuil. 1975.

2. انجلهارات رونالد، القيم المتغيرة والتنمية الاقتصادية، م، س، ص43-42.

3. انظر العدد المخصص للرشوة في اليونسكو:
- Revue internationale des sciences. «la corruption dans les démocraties occidentales» N° 149. Septembre 1996.

4. جونيو جان ماري، نهاية الديمقراطية – الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، 1995، ص65.

المحترف، لذلك يلجأ المواطنون للدفاع عن مصالحهم إلى تنظيمات اجتماعية بعيدة عن التأطير الحزبي. أما العامل الثاني، فيكمن في قوة وجاذبية مجتمع الفرجة الذي يبدد الحماس السياسي؛ بحيث يتمظهر تأثير الاستعراض على المواطن الغربي في انصرافه نحو البحث عن اللذة والتسلية والعوالم المغايرة التي تحقق له الخروج عن المألوف، لذلك فمواطن المجتمع ما بعد الحداثي هو رحالة يقتفي الغريب، بحيث نشطت (السياحة في الأدغال والجبال والصحاري والمناطق النائية.. كما نشطت الرياضة بكل أصنافها حتى الغرائبي منها. "أما السياسة ومصارعها" فقد تركت لشاشات التلفزة في بيوت الغرب هذه الشاشات باعتبارها هي الحياة اليومية لإنسان العالم الثالث التي غدت تشكل للمتفرج الغربي ذكريات سحيقة، يوم كان لا يزال يحيا فترة ما قبل تاريخه...[1].

لقد ساهم التلفزيون في تحويل الحدث السياسي إلى شيء بدون معنى، فكل حدث ينسى بسرعة، فالمتلقي يتحول باستمرار في القنوات إلى درجة اختلط لديه الحدث الواقعي بالوهمي، فكثرة الصور الحاملة للأحداث والكوارث التي لا تعنيه وأحيانا تعنيه، أصابته بالتخمة وبفعل تجاورها مع صور الفرجة، فقدت معناها وجديتها.

إن هذا التشظي المهيمن على المجتمع ما بعد الحداثي يدحض بقوة ذلك الزعم الزائف بأن الإيديولوجية الليبرالية انتصرت وانتهى التاريخ بتوحد الواقع مع العقل. فأية عقلانية هاته التي يمكن أن يوصف بها الواقع الغربي وهو يعج بكافة التناقضات أولها اللامساواة الاجتماعية والانحراف وتهميش العاجزين والتفكك الأسري وتفشي العنف بكل أبعده ومظاهره؟

فهذا التلون المفرط في المجتمع ما بعد الحداثي، وهذا السقوط المدوي لكافة الشعارات، والتآكل المتواصل لسائر المشروعيات، وهذا التداخل المذهل والتداعي المفرط للتفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والدينية هو الذي جعل الأرضية مهيأة لإعادة النظر في مسلمات كانت سائدة في مجال العلوم الاجتماعية والمطارحات الفلسفية.

إن الفكر ما بعد الحداثوي هو احتفاء بتشييع إفلاس المجتمع التقليدي والحداثي، وتنظير لقيم وأخلاق الشذوذ بكل مراتبه وأنماطه.

ثانيا: آفات الانزلاق القيمي لما بعد الحداثة

إن أخلاق ما بعد الحداثة هي التجلي الصارخ لحضارة الهوى، وهي نتيجة لإفلاس مجموعة

1. مطاع صفدي، نقد العقل الغربي، مركز الإنماء القومي، 1990 ص315.

من مؤسسات المجتمع الحداثي (المؤسسة الدينية، الدولة، المدرسة، الأسرة، الأمن...) وهي أزمة عارمة أجهزت على مبدأ السمو الأخلاقي، وأعلت من قيم الفردانية والمباهاة والبحث عن التميز والسعادة الزائفة والنجومية الفائقة/السطحية. فالمجتمع ما بعد الحداثي، قد تخلى عن البحث عن المعنى أو الحقيقة مقابل تقديس اللحظة واللذة و عبادة "الذات". ويمكن اختزال الأخلاق اليومية للمجتمع ما بعد الحداثي في الحقوق والواجبات التي يحددها:

ضرورة احترام جميع أنماط وأساليب العيش؛ المشاركة في جميع مناسبات التبرع؛ مواجهة العنصرية؛ احترام حقوق المثليين؛ إدانة أشكال العنف، تجنب حمل الناس على اعتناق دين ما؛ الاعتراف بشرعية الدعارة؛ اعتبار الطلاق جائزا إذا كان يعرقل نزوات الذات؛ الخيانة الزوجية مقبولة إذا انعدم الحب؛ الإجهاض مقبول في إطار التخطيط الأسري؛ جميع الوسائل مقبولة لتحقيق طموحات الذات... هاته الأخلاق التي توجه السلوك اليومي للإنسان ما بعد الحداثي، تتحكم بها الرغبة المصلحية الذاتية التي لا تؤمن بوجود حقيقة سوى "الأنا[1]". ويمكن تحديد آفات هذا الانزلاق فيما يلي:

1. نسبانية المعرفة ووئد الحقيقة

إن تصريح رواد ما بعد الحداثة بنهاية الحقيقة بدعوى نسبانية المعرفة. وعدم وجود إجماع حول معطى خارج الذات يشكل حقيقة متعالية، لا يعتبر مجرد قول أو خطاب نظري فضفاض أو سفسطة فقط؛ وإنما هو فعل سلوكي نابع من رؤية أخلاقية، تتحلل من الالتزام بضوابط أخلاقية متعالية وتمنح الذات حرية الانتفاع المطلق؛ أي إطلاقية الهوى، بل فوضاوية الهوى، ولذا فإن المجهود النظري الما بعد الحداثوي المنصب حول الاستدلال على نسبانية المعرفة ما هو إلا تبرير لمشروع حضارة الهوى.

فما هي إستراتيجية الفكر ما بعد الحداثوي في تشييع الحقيقة ووأدها والترويج لنسبانية الحقائق؟ وما هي تداعيات ذلك على القيم؟

كما هو معلوم، يعتبر نيتشه الأب الروحي لما بعد الحداثة، بحيث دشن القول بأفول الحقائق وإنكار وجود حقائق ثابتة متعالية على العالم المادي، وبالتالي أنكر مبدأ المركز الكامن في المادة،

1. R. Kerbs: l'éthique à l'époque postmoderne. Revue internationale de foi. de pensée et d'action. In www.dialogue.adventist.org.

وإن كان موقف نيتشه نابع من نقده الشرس لأخلاق المسيحية، فقد حمله ذلك على نقد الدين والحقائق التابعة له، بل المطالبة بالتخلي عن البحث عن الحقيقة[1].

وقد أعلن ليوتار، استنادا إلى الفكر النيتشوي[2]، نهاية الحكايات الكبرى meta-récits وذلك في كتابه الوضع الما بعد الحداثي، حيث يقول: "في المجتمع والثقافة المعاصرين، مجتمع ما بعد صناعي، ثقافة ما بعد حداثية، يصاغ سؤال مشروعية المعرفة بمفردات مختلفة. فقد فقدت الحكاية الكبرى مصداقيتها، بصرف النظر عن نمط التوحيد الذي تستخدمه، وبصرف النظر عما إذا كانت حكاية تأملية أم حكاية تحرر[3]"؛ فالفكر ما بعد الحداثوي يتبرم من المنظومات والأنساق التي تزعم أنها قادرة على قول الحقيقة أو حمل الناس على الاعتقاد بوجودها ولذا" فقد فقدَ معظم الناس الحنين للحكاية المفقودة. ولا يستتبع ذلك بأية حال أنهم قد اختزلوا إلى الهمجية. وما ينقذهم منها هو معرفتهم بأن المشروعية لا يمكن أن تنبثق إلا من نفس ممارستهم اللغوية وتفاعلهم التواصلي[4]."

ويمكن اختزال الإستراتيجيات التي رامت نسف الحقيقة وقولها في اللاماهوية اللاتمثيلية واللاتأسيسية.

إن التيار الفلسفي الماهوي هو الذي يرى ويعتقد بكون الإنسان قادر على اكتشاف الماهية، باعتباره ممتلكا لماهية، وبالتالي له الأهلية الفكرية على التقاط وصياغة الحقائق المحيطة بنا. وتيار ما بعد الحداثة يرفض الماهوية ويعوضها بالعلائقية[5].

فماهية الأشياء ملتصقة بعلاقتها بغيرها ولذا فليست هناك حالة من الثبات وإنما نسبانية متحكمة. ويعتبر رورتي اللاماهوية" أهم خاصية تميز البراغماتية ذلك أن أول ما يتصف به المذهب البراغماتي يتمثل في نزعته اللاماهوية التي تنطبق على مفاهيم تمثل الحقيقة، المعرفة،

1. انظر: محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2008.

2. انظر: التأثير الكبير لنيتشه على رواد فكر ما بعد الحداثة:
- Dave Kobinson: Nietzsche and postmodernism. To Ten Books 195

3. ليوتار، الوضع ما بعد الحداثي، م، س، ص56.

4. المرجع نفسه، ص59.

5. محمد جديدي، الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص194-195.

اللغة، الأخلاق وكذا جميع المواضيع، التي تكون محل تنظير فلسفي من هذا القبيل[1]."

واللاتمثيلية هي تداعي للقول باللاماهوية، ذلك أنها تخلي عن تلك الفكرة القائلة بأن من مهام الفلسفة تمثل الحقائق أو أنها نظرية عامة للتمثل. فرورتي يقول بأن اللاتمثيلي هو ذلك "التأويل الذي عوض أن ينظر إلى المعرفة على أنها البحث عن رؤية دقيقة للواقع، يرى فيها بالأحرى، اكتساب عادات للفعل تسمح بمواجهة الواقع[2]."

ودعوة فتغنشتاين وهايدغو وديوي إلى تجاوز التمثيلية أو القول بأن الفلسفة هي نظرية عامة للتمثيل يؤدي إلى ضرورة تبني اللاتأسيسية[3]. والتي تعني ضرورة الاعتراف بكون الفلسفة لا تؤسس لشيء، وبالتالي التبرم من التأسيس في المعرفة. إن النزعة اللاتأسيسية تطعن في مشروعية، الخطابات والأنساق الفكرية وهذا ما ورثه رواد الفكر ما بعد الحداثي مثل ليوتار عن نيتشه الذي ناهض التأسيسية.

2. تدنيس المقدس

إن موقف ما بعد الحداثة من الدين والأخلاق الدينية، نابع من ذلك المنطلق الأولي الذي يسخر من المتعالي والمطلق والمغلق والموجه. فتصريح رواد ما بعد الحداثة وخصوصا ليوتار بنهاية الحكايات الكبرى يعني بأن الدين والمنطوقات الدينية تعتبر كذلك حكايات لابد من تجاوزها. وموقف نيتشه واضح من ذلك حيث يعتبر الدين مجرد اختراع بشري لتحقيق نوع من الرفاهية النفسية أو الحماية من المجهول[4]. ويقول فيروباخ في كتابه جوهر المسيحية: "ولاشك أن عصرنا... ما هو مقدس بالنسبة له، ليس سوى الوهم، أما ما هو مدنس، فهو الحقيقة، وبالأحرى، فإن ما هو مقدس يكبر في عينه بقدر ما تتناقص الحقيقة ويتزايد الوهم، بحيث أن أعلى درجات الوهم تصبح بالنسبة له أعلى درجات المقدس[5].

ويعتقد رواد ما بعد الحداثة وذلك ابتداء من نيتشه أن الفن هو التعبير الكامل عن الوهم

1. المرجع نفسه، ص197.
2. المرجع نفسه، ص203.
3. المرجع نفسه، ص203-204.
4. محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، ص728.
5. جي ديبور، مجتمع الفرجة، ص3.

ولذلك يتم الاحتفاء به. ونجد في الإنتاج الفني السينمائي لهوليود، تجسيدا لمنظور تدنيس الدين والهزل به، فهناك مجموعة من الأفلام التي تتلاعب وتسخر من القضايا الدينية عامة ومن المسيحية خاصة أو الإسلام أو اليهودية.

ففي فيلم (جبريل)[1] يتم الحديث عن تمرد الملائكة على الاختيار الإلهي ويتم تصوير الملائكة الكبار (إسرافيل عليه السلام) في وضع مناهض للإلوهية واختيار للوضع البشري والانحياز له. وفي فيلم Legion[2] يتم تصوير ملك يقاوم الأمر الإلهي بعقوبة البشر ويطالب بإعطاء البشرية فرصة أخرى فيقوم بإنقاذ امرأة حامل من سفاح تشكل استمرارية الإنسانية. كما انتقد فيلم[3] "شريك الشيطان" ثنائية الخير والشر، وصار الشيطان يدافع عن نفسه ومنهجه منتقدا التدبير الإلهي ومشككا في مصداقيته. وكثيرة هي الأفلام التي تحتفي بعبادة الشيطان وتمجيد اللذة والاحتفاء بالعبثية. ولاشك أن هذا القصف المستمر للعقول عبر الآلية الفنية سيساهم في زعزعة القيم الدينية للإنسان المعاصر برمته وليس فقط إنسان المجتمع ما بعد الحداثي.

3. مسخ الكينونة الإنسانية

إن قيم ما بعد الحداثة تتمركز على الاحتفاء بالنسبانية وعدم الثبات والإقرار بالتحول والتغيير، وتهدم الحدود الفاصلة بين القبيح والحسن، وتسمح للإنسان أن يطيح بكل المرجعيات مشكلا لنفسه مرجعيته الخاصة، بحيث يصبح هو المرجع ذاته. فإطلاق الحرية للإنسان في الاستمتاع ومناشدة السعادة كما يتخيلها ويتمثلها، تجعل الذات الإنسانية قابلة لكل تحول دون أي امتعاض أخلاقي من ذلك. ولذا فيمكن القول أن القيم ما بعد الحداثية التي توجه المنظومة الحقوقية في الزمن ما بعد الحديث[4]، تهب للإنسان ما بعد الحديث حقوقا[5] من شأنها مسخ كينونته وهدم أسس كرامته وسموه. وهكذا نجد التكنولوجيا المتطورة تساهم في تمكين الإنسان من التلاعب الوراثي الإنساني والحيواني، لتحقيق جميع رغباته وأهوائه. فالإنسان ما بعد الحديث مسكون

1. انظر: لائحة الأفلام ذات البعد الديني على الرابط www.cinetrafic.fr

2. المرجع نفسه.

3. المرجع نفسه.

4. Grilles Lipovetsky. Sébastien Charles: Les temps hypermodernes. Crassek. 2004.

5. Pauline Maisaui: Réflexions autour de la conception postmoderne du droit. Droit et Société. 27. 1994. P. 447-448.

برغبة جامحة في تحقيق الخلود والقوة المطلقة للذات، بحيث يمكن الجزم أن البراديغم الموجه للعلوم الطبية ما بعد الحديثة، ليس هو فقط صيانة الجسد من الآفات للقيام بوظائفه الإنسانية، وإنما تجاوز ذلك إلى الرغبة في الاستمرارية الوجودية المطلقة، بحيث هناك اعتقاد بإمكانية اكتشاف سر الحياة البشرية. ولذا تتأسس في المجتمعات ما بعد الحديثة شركات متخصصة في تجميد الجثث، حتى يتمكن العلم من الوصول إلى تكنولوجيا إعادة تفعيل الحياة فيها، وتصبح أجسادا قابلة للحياة.

كما تمنح قيم ما بعد الحداثة، حق التلاعب بالجسد من التجميل إلى التشويه أو المسخ. مثل المرأة التي قامت بتغيير ملامح وجهها وجسدها لتكون زوجة للشيطان. كما أن حق تغيير الجنس من أنثى إلى ذكر أو ذكر إلى أنثى هو غاية في المسخ الجديد. وتعتبر ما بعد الحداثة ذلك حقا مشروعا كما تقر بالمثلية الجنسية ولا تعتبر ذلك استمتاعا غير مشروع، بل كل محاولة للتنديد بهذا الحق هو تعدى لثقافة مهيمنة على حقوق مهمشين.

ويتم تصوير وإنتاج أفلام كبرى تظهر أنواعا من الإنسان يمتلك خاصيات التفوق مثل الرجل العنكبوت والخفاش ومصاصي الدماء والمتحولون والرجل الذي لا يقهر ومالكي القدرة السحرية الفائقة وغير ذلك من الأفلام التي تنسج نظرة ازدارائية، بحيث تجعل حتى من الإنسان الآلي أكثر عاطفية وإدراكا للمصير البشري ووعيا وتفهما. وهي أفلام تبشر بقدوم إنسان آخر.

إن القيم ما بعد الحداثية بحقوقها الجديدة، تهدم الروابط الاجتماعية، بحيث تجعل من الحياة الأسرية والزوجية مجرد عقود تحكمها قواعد الانتفاع بدل التشارك في المودة والسكينة.

4. اجتثاث الأصل

إن التصور ما بعد الحديث للقيم التربوية والأسرية هو في غاية الخطورة، بحيث تسود رؤية الفصل بدل الوصل. فما بعد الحداثة لا تعترف بالطرق الحديثة[1] في تربية وتعليم الأطفال والناشئين، ذلك أن التربية ما هي إلا ممارسة لسلطة تحاول فرض منظورها على مكونات المجتمع.

فالمعلم لا يجب أن يمارس دور التلقين ونقل الحقائق جاهزة ويفرضها على التلاميذ والطلبة،

1. Stuart. Parker: Reflective teaching in the post-modern world. Open University press. 1997.

فيتعين عليه تجنب توجيههم وحملهم على[1] الاعتقاد بالحقائق والأفكار التي يؤمن بها أو التي يروج لها المجتمع. وهذا الطرح لا يناقش مسألة المنهج التربوي فقط، فأمر اعتماد منهج تفاعلي تشاركي في بناء المعرفة يمكن القبول به.

ولكن حينما يستهدف الأمر هدم الاستمرارية القيمية التي تحملها مؤسسة تعليم في المجتمع فهذا لا يمكن القبول به وخصوصا في المجتمعات التي تتأسس على الدين والتقاليد والأعراف المستوحاة من الرسالة الإلهية المحفوظة. فإلغاء دور المعلم في نقل القيم والأخلاق هو اجتثاث الأصل.

وهاته الظاهرة الخطيرة، تتجسد أكثر في الفكر النسوي المتطرف الذي يهدم مقومات الأسرة ويعبث بالفطرة والطبيعة البشرية.

ويبدو ذلك في الفكر النسوي الراديكالي الذي يناهض النظام الأبوي ويعتبره أساس كل تنظيم سياسي أو ديني أو اجتماعي، فالسلطة الذكورية في نظر هذا التيار منغرسة في بنية المجتمع[2] والنظام الأبوي هو المسؤول عن التوجيه السلبي للمرأة، حيث جعل جنسية المرأة حسب Ger[3] وظيفة أساسية ولصيقة بطبيعتها ومحددة لهويتها. وقد صاغت Firestone[4] نظرية حول القمع الجنسي واعتبرته أساس المجتمع الأبوي بينما الأشكال الأخرى غير العادلة، كالقمع العرقي والاستغلال الطبقي هي قضايا فرعية تابعة.

كما بينت K.Millett[5] في كتابها "السياسات الجنسية" أن الأبوية ثابت اجتماعي في كل بنيات المجتمع وفي مختلف العصور التاريخية وفي كل المنظومات الدينية. كما أن تهميش المرأة ناتج عن التربية الأولى للطفل الذي يلقن التمييز النوعي، حيث ينظر إلى المرأة بأنها أدنى من الرجل.

وتقترح K.Millet[6] التوعية وسيلة لتجاوز الأبوية؛ لأن النظام الأبوي ليست قدرا محتوما،

1. Andrew Wright: Religion. Education and postmodernity. Routldge Falmer. 2003.

2. Paulin Johnson: Feminism as Radical Humanism.Westview Press 1994.

3. Heyword Andrew: Political ideologies. Mac Hillan 1992. p 236.

4. Shulanith Firestone: The dialectic of sex. Women's Press 1980.

5. Kate Millett: Sexual Politics. Urbana. University of Illinois press 2000.

6. Hey worf Andrew: Political ideologies p 237.

لذلك تعتقد Firestone بأن هذا التجاوز يكمن في ضرورة تخطي المرأة لقدرها كحواء، فالأمومة هي التي تكرس التبعية وتجعل المرأة تابعة لوظيفتها البيولوجية.

وإذا كان تطور التاريخ، حسب ماركس، سيؤدي إلى نهاية الطبقات، فإن الاتجاه الراديكالي يرى بأن التطور التكنولوجي من شأنه ابتكار أشكال معينة لتحقيق استمرار إنتاج العنصر البشري بعيدا عن طريقة الحمل التقليدية التي تمثل فيها المرأة دور المنتج، وذلك عبر إنتاج الأطفال في الأنابيب.

وإذا كانت Millet تعتقد بأن إمكانية تجاوز الأبوية تكمن في تكييف الشرط الاجتماعي، فإن Firestone ترى ذلك في تكييف الشرط البيولوجي[1].

وقد نحت بعض الكتابات الراديكالية اتجاها متطرفا حيث اعتبر الرجل مشكلا لطبقة جنسية، وقد أشاع الرجل ثقافة الرهبة، مما جعل المرأة تعيش دائما في الدونية. وهذا ما جعل الحركة النسوية تتجه إلى الشذوذ، بحيث صرحت Atkinson بأن النسوية هي النظرية والسحاق هو التطبيق.

لقد اتجهت حركة تمركز حول الأنثى إلى إلغاء الرجل فالأنثى هي مرجعية ذاتها. وتعتبر ظاهرة السحاق ثباتا لتلك النزعة الشاذة والمتطرفة لتحقيق الانفصال التام، وهذا التمركز حول الذات الأنثوية[2] جعل النسوية ما بعد الحداثية تطالب بإعادة النظر في كل شيء.

ومن تداعيات الفكر النسوي المتطرف هو الخروج من الإطار التقليدي والحداثي للأسرة إلى

1. Ibid 238.

2. المسيري عبد الوهاب، ما بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى، مجلة القاهرة، أكتوبر 1997. ص59-60.

أنماط ما بعد حداثية للأسرة[1]، وهي الأسرة الرجولية[2] والأسرة الأمومة[3] والأسرة المتعددة، حيث ينعدم الأصل ويحتفي بالشذوذ وتتلاشى الفطرة وقيم الإنسانية. وهذا يجسد تحولا هاما يعرفه مجتمع المخاطر[4] الذي لم يعد منحصرا في الغرب وإنما العالم بأسره. إن قبول المجتمع المعاصر وما بعد حديث بالزواج غير الشرعي وكراء البطون والحصول على الحيوان المنوي[5] من البنوك المخصصة لذلك هو دليل على اجتثاث لكل أصل. فالأجيال الحالية والقادمة للمجتمعات ما بعد الحداثية لن يكون لها أصل متصل ولا نسب موصول وبالتالي الولوج لعصر الإنسان.

ثالثا: المآلات

إن التشخيص الشامل للوضع الإنساني والذي يمكن اختزاله في كون الإنسانية تعيش أزمة كينونة، وأزمة إفلاس أخلاقي، حمل مجموعة من المفكرين المهتمين بالدراسات المستقبلية والاستشرافية على التفكير الجاد في تخيل وتوقع المصير البشري. وانحاز شخصيا إلى تحديد المشاهد المستقبلية في المآلات الثلاثة:

1. ما بعد الإنسان[6]

ظهر تيار فكري وفلسفي ينعي الإنسانية ويبشر[7] بقدوم إنسان آخر مركب ومعدل وراثيا؛

1. طه عبد الرحمان، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، 2006، ص99-139.

- انظر كذلك:

G. Fid: La famille postmoderne: intimité et parentalité. In la Revue du REDIF. 2008. col 1. pp 41-47. www.redif.org.

2. Nadaud. Stéphane: Homoparentalité. Une nouvelle chance pour la famille ? Paris. Fayard. 2002.

- Roudinesco. Elizabeth: La famille en désordre. Paris Fayard 2002.

3. Marie Thérèse le tablier: «La monoparentalité aujourd'hui». in Monoparentalité. homoparentalité. transparentalité en France et en Italie. Tendances. défits et nouvelles exigences. RUSPINI Elisabette (Ed) (2011). 33-68.

لا ينحصر مدلول هاته الأسرة في نموذج الأسرة التي تقوم على امرأة مطلقة أو متوفى عنها زوجها وإنما كذلك أسرة مبنية على أمهات عازبات وكذلك زواج مثلي بين أنثى وأنثى.

4. Beck. U: Société du risque. Flammarion. 2003.

5. Olivin Deyens: La condition post humaine. Flammarion 2008.

6. Cary Wolfe: What is posthumaine ? University of Minnesota. Press 2010.

7. J. Michel Besnier: Demain les post humains. Hachette2009.

وتكنولوجيا يصطلح عليه بـ Cyborg أو ما بعد الإنسان. وهو إنسان آلي أو شبه آلي، يتجاوز النقص والضعف البشري. والحديث عن إشكالية ما بعد الإنسان، هو حديث صاخب في المواقع المهتمة بفلسفة العلوم والتكنولوجيا الرقمية والنانو والذكاء الصناعي. وقد تشكلت مجموعة من المنتديات ومراكز الفكر للاهتمام بالموضوع. كما تأسست جمعية عالمية لما بعد الإنسانية[1] تدافع عن هذا التوجه، وتدعو المجتمع المدني العالمي إلى تبني أطروحة ما بعد الإنسان. وقد تضمن بيان هاته الجمعية الدولية المبادئ التالية:

- المستقبل البشري واعد بتحولات كبيرة ستغير الوضع الإنساني، وخصوصا التطور التكنولوجي الذي يمنح الإنسان إمكانية البقاء في الحياة أكثر، كما يمكن تطوير إمكاناته العقلية والذهنية والعضوية وبالتالي إنهاء حالات الألم والمعاناة التي يواجهها البشر..

- ضرورة الانخراط في أبحاث لفهم هاته التحولات القادمة..

- الاتجاه ما بعد الإنساني يعتقد بإمكانية الاستخدام الفعال لهاته التحولات التكنولوجية ولا يرى تحريمها أو منعها..

- الدفاع عن حق البشرية في استغلال التطور التكنولوجي لتطوير كفاءتهم وذواتهم..

- للتخطيط للمستقبل يجب الوعي بأهمية هاته التحولات كما يجب تفادي أي حرب معتمدة على التكنولوجيا الدقيقة من شأنها القضاء على العنصر البشري..

- يجب خلق منتديات لمدارسة هاته القضايا وصياغة وضع اجتماعي عالمي جديد وتبني قرارات مسؤولة..

- التيار ما بعد الإنساني يحتضن أفكارا ورؤى متعددة ويتبنى مبادئ النزعة الإنسانية الحديثة ويناصر العيش الجيد لكل من له وجدان نابع من ذكاء بشري أو صناعي أو ما بعد إنساني أو حيواني. ولا يدعم هذا التيار أي توجه سياسي.

وقد وضع على هذا البيان الذي اختصرنا أفكاره وتوجهاته، مجموعة من المفكرين تمت المصادقة على البيان بعد تعديله في 4 مارس 2002 و1 دجنبر 2002[2].

1. World. Transhumanists Association. Transhumainsm.org.

2. Ibid.

ويمكن تحديد المرتكزات الأساسية للتوجه ما بعد الإنساني، أو تيار ما بعد الإنسان فيما يلي:

- الاعتقاد بالعجز الإنساني[1].

- الاعتقاد بضرورة تجاوز النقص البيولوجي والنفسي والذهني للإنسان[2].

- تكنولوجيا النانو والذكاء الصناعي والمعلوميات الجديدة وتكنولوجيا علم الوراثة هي العلوم المشكلة للتحول إلى ما بعد الإنسان[3].

- الإيمان بإمكانية الوصول إلى التفوق الخارق.

- القدرة على التحكم في إمكانات الذات وتجاوزها.

- الوصول إلى تمديد العمر وتحسين مستوى العيش، بل الوصول إلى الخلود[4] والاستمرار المطلق.

هاته مجمل القضايا التي يؤمن بها تيار ما بعد الإنسانية والتي تهز الآن المنتديات الفكرية، فيرى البعض أن ذلك توجه خطير من شأنه القضاء على الإنسان كموقف فكوياما الذي يندد ويقول بأنها أخطر فكرة عرفتها البشرية. كما يرى هيرفي فيشر[5] بأن ذلك جنون وتطرف علمي وتقني وتساءل لماذا سنسقط في استيلاب جديد هو الاستلاب التقني بعدما تحرر الإنسان من الاستلاب الديني!

ليس الغرض عندنا في هاته الورقة تمحيص ونقد هذا التيار، بحيث سنخصص له بحثا مستقلا، ولكن الهدف هو الإشارة إلى كون قيم ما بعد الحداثة حملت التوجهات الفكرية الراهنة على سير في دروب التطرف الشامل والنسبانية المسقطة لكل خصوصية إنسانية. وبالطبع فهذا

1. Dominique le court: Humain. post humain. Puf 2003.

2. Miroslav Radman: Au-delà de nos limites biologiques les secrets de longévité. Plon 2011.

3. Transhumanism. Org.

4. Dr. Laurent Alexandre: la mort de la mort. JC lathés 2011.

يرى الكاتب بأن التقدم الطبي سيغير المسار البشري ويمكن من إعادة النظر في مفاهيم الحياة والموت والشيخوخة والألم والمرض...

5. Chervé Fisher: Hyper humanisme contre le post humanisme. In Hyper humanisme blogpot. com (19 juin 2011).

السيناريو الآخذ في التحقق هو تجسيد لنزعة إبليسية تروم دفع الإنسان لتحدي الخالق وتغيير الخلق وتشويهه، بحيث تكمن خطورة هذا السيناريو في الاعتقاد بإمكانية تجاوز الموت وبالتالي نزع المصداقية عن الديانات التوحيدية وبيان قدرة الإنسان على تحقيق تحدياته. فالبراديغم المتحكم في العلوم المفصولة عن الدين، هو قدرة الإنسان على التحكم في كل شيء. فكما أشرنا إذا كانت العلوم الطبية المعاصرة تتحكم فيها رؤية الوصول إلى الخلود، فإن البراديغم الديني والإسلامي بالأساس ينطلق من رؤية مغايرة، فالعلوم الطبية والاجتهاد فيها الغاية من ذلك، هو صيانة الجسد من الآفات للقيام بوظائف العبودية والتقرب إلى الله، مع الإقرار بأن كل الآفات والابتلاءات هي من مشاهد الضعف البشري الذي يصير مطية لمشاهدة الإحسان الإلهي.

2. الإنسان التائه – المنفصل

إن حالة التيه وضياع المحددات الأخلاقية والدينية هي السمة الغالبة على المجتمعات ما بعد الحديثة وحتى المجتمعات الآخذة بنموذج الحداثة المشوهة. ولذا فمآل التيه والانفصال وإن كان أدنى درجة من مآل ما بعد الإنسان، هو السائد حاضرا ومستقبلا. فارتفاع وتيرة الاستهلاكية وتحكم منطق الفردانية يحكمان على المجتمعات المستقبلية بمزيد من حالات التيه والانفصال عن الفطرة والتوجه إلى الله. فقيم ما بعد الحداثة ساهمت في توليد مشاعر عدم اليقين والفوضى والاستخفاف وبالتالي الاحتفاء بالوهم والزائل. وهاته القيم في تقديرنا لن تبقى حبيسة ما يسمى المجتمعات ما بعد الحديثة وإنما ستنقل إلى المجتمعات التقليدية، بحكم تسارع دينامكية العولمة، ولا يمكن تجاوز حالة الإفلاس القيمي هاته، إلا عبر التوعية والتربية والتشريع، لحمل الناس على بيان محددات الكرامة الإنسانية. فالتائه المنفصل لا يعرف الوجهة التي يقصدها؛ بحيث تسود وستسود تيارات متعددة، إلحادية وجنونية وماجنة وعنيفة ومتطرفة... وتيارات جوالة باحثة عن معنى الحياة والوجود ومتنقلة بين أنماط فهم وإدراك وتدين؛ إلى أن ترسو في محطة إيمانية أو اعتقاديه.

إن التائه والمنفصل كما أنه يمكن أن ينخرط في النموذج الشاذ "لما بعد الإنسان"، يمكن كذلك أن يصعد إلى نموذج آخر روحي وأخلاقي. والناظر في أحاديث الفتن الراسمة لمشاهد آخر الزمان سيتبين له أن البشرية مقبلة على التحلل من القيم والأخلاق (الأمانة – الكرم – الصدق – الإخلاص – الرحمة – التعاون – الصبر – التواضع – العفة...) وفئة قليلة هي القابضة على

اليقين بالله.

3. الإنسان المتوجه – المتصل

هو سيناريو المؤمن المحسن، والمتوجه إلى الله والذي تحرر من أهوائه وسجن غفلته، اللاهج بذكر الله، المستجيب لمولاه، الداعي إليه على بصيرة وهدى، هذا الإنسان المتصل المستحضر لحقيقة الكينونة الإنسانية، والقائم بوظائف العبودية والمسترسل في طاعة الحق؛ هو الجالس في بساط الأنس بالله، بلا هم ولا وهم.

ولذلك، فالعالم الإسلامي معني بالاهتمام بالجانب الروحي للإسلام وصيانته والعناية به وكف ألسنة المنكرين والجاهلين الذين لا يعرفون كنه هذا الصرح الروحي الذي تمتلكه الأمة الإسلامية.

إن التزكية الروحية المستندة إلى الأصول المحكمة والسند السليم والإرشاد الخالص لوجه الله، هي التي يمكن أن تؤهل العالم الإسلامي لمواجهة عبثية ما بعد الحداثة والتيارات الفكرية والدينية المخالفة لجوهر الفطرة وسمو الإنسان.

خاتمة

إن قيم ما بعد الحداثة مرتبطة بمسارات المجتمع ما بعد الصناعي وما بعد الفوردي ومجتمع الصورة والاستهلاك المفرط ومجتمع الفرجة واللعب. إن الزمن المعاصر هو زمن التمركز حول الذات والإفراط في اللهو واللغو، حتى تحول الإنسان إلى سلعة أو فضاء للعلامات التجارية. لقد ضاعت كرامة الإنسان المعاصر في طاحونة الأهواء. ولقد آن الأوان لأن يتحرر من استلابه الجديد.

ولذا فالعالم الإسلامي مطالب بأن يتابع التحولات القيمية والفكرية للمجتمع ما بعد الحداثي، ويبتكر ويبدع خطابا فكريا قادرا على المساهمة في تخليق الإنسانية وانعتاقها.

إن الخطاب الديني للعالم الإسلامي في حاجة ملحة إلى استيعاب التحديات الراهنة والقضايا الفكرية الصاخبة في الغرب والعالم. ومن شأن الإبداع في تبليغ الرسالة المحمدية عبر الخلق والسمو الروحي والعلم الرصين والمتجدد، تحقيق التوجيه الفعال للإنسانية نحو الفطرة السليمة.

إن التصدي لعبثية الأفكار والمنظومات القيمية الفاسدة رهين بتجديد إيماننا وتمحيص مقاصدنا وتطوير آلياتنا الفكرية ومناهجنا ووصلها باليقين في الله.